محاضرات في البلاغة العربية

علم البيان

إذن هذا بالنسبة إلى علم المعاني أما القسم الثاني الذي تناولته البلاغة العربية بالشرح والتحليل هو علم البيان فيا ترى ما معناه وكيف تمثل هذا العلم عند البلاغيين ؟ هذا ما سوف يلاحظ الآن.

يعتبر << **علم البيان** هو العلم الذي يقدرنا على التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه،فالوفاء والكرم والشجاعة والجمال يمكن التعبير عن كل منها بأكثر من تعبير واحد >>(87).

ويستدعي لتوضيحه الوقوف على أسرار كلام العرب منثوره ومنظومه ، ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة وتباين في درجات البلاغة التي وصلت إلى مرتبة الإعجاز في القرآن الكريم ،وقد حار الجن والإنس في محاكاته وعجزوا عن الإتيان بمثله ، وقد تمثلت الأنماط البيانية في التشبيه، والاستعارة، والكناية،والمجاز؛وهو ما عرف بعلم البيان،وهذا ما أشار إليه أحد النقاد المحدثين حين قال:أنّ النقاد القدماء إنما كانوا يصطنعون الذوق والانطباع طورا والأدوات البلاغية التقليدية القائمة على الاستعارة والمجاز العقلي والكناية والتشبيه والمحسنات اللفظية بوجه عام، طورا آخر(88) أو المجاز،فالمعنى واللفظ والخيال مع بعضها تعكس لنا جمال التصوير نفسه،لأنّ هذا الأخير هو:<< أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيّدها، والغاية الأخيرة منها >>(89).

وعليه ينبغي علينا أن نقف على أول محطة عني بها الدارسون العرب كثيرا،فعمدوا إلى تبيينها وتوضيحها،فتعرضوا لها بالدراسة والتحليل التي غالبا ما يلمحها المطلع على كتب الأدب والشعر واللغة والتفسير،ويرجع اهتمامهم به إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام فضلا عن كثرتها في القرآن الكريم والحديث الشريف.

ومن هنا اجتهدوا في دراسته والكشف عن أسراره وخباياه،فقد ذهبوا في دراسته مذاهب عديدة وسلكوا في التعرف على أسراره مسالك شتى، حيث عد عنصرا من العناصر التصويرية في الشعر،<<والشاعر الحاذق هو الذي يستمد من التشبيهات طاقة فنية جديدة ، تمكنه من ارتياد عالم السحر والخيال وفتح آفاق واسعة أمام رؤياه >>(90) ، ومن ثم اعتبر هذا الأخير << جزءً من تكوين التجربة الشعورية عند الأديب وهي ملمح من ملامح العمل الأدبي الفني>> ، وقد نال التشبيه اهتماما كبيرا من قبل المفكرين القدماء وأعلام الأدب والنقد ، فبحثوا في ضروبه وأدواته ؛ فتباينت آرائهم وكثر كلامهم ومن الخطأ أن يظن الدارس أنّه سوف يلم بكل ما جاء به أهل البلاغة قديما،ولكن مهما تعددت الآراء واختلفت وجهات النظر ؛ إلا أنّه تمت محاولة إيراد أقوال لا تكاد إدراكا لصلته الوثيقة بالتصوير في مجال الشعر، تختلف في مفهومه، و بنيته،و أطرافه وإن اختلفت اختصاصاتهم الأساسية وتباينت مشاربهم؛ فهاهو (المبرد) أقدم اللغويين الذين عرّفوا التشبيه اصطلاحا؛قال :<< واعلم أنّ التشبيه من أين وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر،فإنّما يراد به الضياء والرونق ولا يراد به العظم والاحتراف>>(91).

وبعده " قدامه بن جعفر" يرى في كتابه "نقد الشعر":<< أنّ أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد

>>(92) ،ويقول أيضا موضحا ذلك في كتابه: << إنّ الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتّة،اتّحدا فصار الاثنان واحدا؛ فبقي أن يكون الشبه إنما يقع بين شيئين اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها،وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها>>(93) ؛ وقد ذكر لنا مثالا عن التشبيه فقال ومما جاء من التشبيهات الحسان قول وسبن حجر يشبه ارتفاع أصواتهم في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة أخرى بصوت التي تجاهد أمر الولادة فقال:

لها صرخة ثمّ إستكاتـــة كما طرّقت بنفـــاس بكر.

فإذا نظر إلى ذلك وجد الذي وقف بين الصوتين واحداً وهو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتبديد في الصرخة ؛وقد عرفه " المرزوقي" : << بأنّ أصدقه ما لا ينتقص عند العكس وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة >>(94) .

ما يتضح من خلال كلامه هو أنّ أصدق التشبيه هو من لم يفقد قيمته عند العكس، وأحسنه ما اشترك فيه أمران في صفات مشتركة ، ووجه الشبه يدرك بالفطنة وحسن التبصر والتقدير فإيحاءات الصورة إذا وتأثيراتها الفنية على القارئ جعلاها من أهم وأرقى وسائل التعبير في الشعر العربي القديم والحديث، فهي طرف من أطراف التشبيه القصد منها توضيح المعنى وتأكيده في الذهن ، ولعل أبلغ وأبسط تعريف لها ما وجد في كتب البلاغة مثل قول البلاغي"عبد المتعالي الصعيدي" : << أنّ التشبيه هو إلحاق أمر بآخر في معنى مشترك بينهما

بأداة، كالكاف ونحوها >>[95] ،وغيرهم كثير من الدارسين ممن أولو عناية خاصة بالتشبيه،فدرسوه واصطلحوا عليه بمصطلحات عدّة لا يتسع المقام لذكرهم جميعا.

وعليه فإنّ التشبيه برغم تنوع مشارب ومسالك الدارسين إلا أنه يظل مصطلحا تحت مفهوم واحد يعرفه الجميع؛حيث أنّه يعتبر هو : << الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني، وأنّ أحدهما يسد مسدّ الآخر، وينوب منابه،سواء كان ذلك حقيقة أو مجاز >>[96] واعتبروه في مفهومه الجمالي<< تصوير يكشف عن حقيقة الموقف الشعوري أو الفني الذي عاناه الشاعر أثناء عملية الإبداع،كما يرسم أبعاد ذلك الموقف عن طريق المقارنة بين طرفي التشبيه مقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الطرفين على الآخر،بل ترمي إلى الربط بينهما في حال أو صيغة،أو وضع يكشف جوهر الأشياء ويجعلها قادرة على نقل الحالة الشعورية،أو الخبرة الجمالية التي امتلكت ذات الشاعر>>[97].

وللتشبيه أربعة أركان هي: << المشبه و المشبه به وهما طرفا التشبيه ووجهه وأداته >>[98] وطرفي التشبيه استدعائهما ضروري لإقامة هذا النوع من الصور؛حيث:<<يكون الإشراك بينهما في وجه وافتراقا من آخر،وأنّه لا يصار إليه إلا لغرض وأن حاله تتفاوت في القرب والبعد والتوسط والقبول والرد>>[99] ؛ فطرفي التشبيه هما من الأركان الأربعة القائمة على تأسيسه إضافة إلى الأداة ووجه الشبه؛ وهذا ما بينه المبرد حين قال :<< العرب تشبّه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى تفسير ولا يقوم بنفسه....فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخيّ هو كالبحر وللشجاع هو كالأسد وللشريف سما حتى بلغ النّجم>>[100].

فقد ذكر صالح بلعيد في كتابه أنّ التشبيه يستعمل كدليل إثبات الحقائق كقولك :(هو أبيض كالثلج) كما يمكن أن يستعمل لغرض التفهيم والتقرير من حال إلى حال كقولك (محمد كالحافر على الماء)، فقد أخرج المشبه من صورته المعقولة إلى صور مشابهة أو محسوسة ؛<< فهو هنا وسيلة لنقل الحقائق العلمية والمحسوسة الخاضعة للبرهان >>[101] إضافة إلى أنواع أخرى منها التشبيه المقلوب[102] ويسمى التشبيه تشبيها مقلوبا لأنّ فيه يجعل المشبه مشبها به ، فتعود فائدته إلى المشبه أتمّ وأكمل وأظهر وأشهر من المشبه به ومن الأمثلة على ذلك قول "محمد بن وهيب الحميري مشبها تلألأ تباشير الصباح بوجه الخليفة حين يمتدح:

وبدا الصباح كأنّ غرّتـــه وجـــه الخليفة حين يــمتدح

فأنت ترى هنا أنّ هذا التشبيه خرج عما كان مستقرا في نفسك من أنّ الشيء دائما يشبّه بما هو أقوى منه في وجه الشبه ،إذ المألوف أن يقال إنّ وجه الشبه أقوى من المشبه، والتشبيه الضمني[103] والتشبيه الضمني هو الذي لا تذكر فيه أركان التشبيه صراحة، بل تلمّح من سياق الكلام ' ومن الأمثلة على ذلك قول أبو تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أنظر إلى هذا البيت لأبي تمام فإنه يقول لمن يخاطبها :لا تستنكري خلوّ الرجل الكريم من الغنى ،فإنّ ذلك ليس عجيبا لأنّ قمم الجبال وهي اشرف الأماكن وأعلاها لا يستقر فيها ماء السيل ، فقد شبه الرجل الكريم الفقير بقمة الجبل وقد خلت من ماء السيل ولكنه لم يضع ذلك صريحا بل أتى بجملة مستقلة وضمّنها هذا المعنى في صورة برهان، قديما كانوا يلجئون في دراساتهم لأصناف العلوم و المسائل البلاغية إلى كلام العربي سواء كان نثرا أم شعرا إضافة إلى

الأمثال والحكم وكذا الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم،هذا الأخير الذي عدّ آية في احتوائه لأنواع من التشابيه البليغة، وما كان على النقاد من حل إلا تناولها بالدراسة والتحليل،فمن بين الأقوال التي اعتمدت على التشبيه في القرآن نذكر قوله تعالى في سورة إبراهيم:{ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء}،وقوله تعالى أيضا في سورة النور :{ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه }؛فقد شبه الله سبحانه وتعالى عباده الكافرين في السورة الأولى كالرماد الذي تذروه الرياح العاصفة فلا يبقى منه شيء،كما شبه هؤلاء الكفار الذين يتخيلون نفع العمل وبأنهم في الطريق الخطأ بالسراب الذي يظنه العطشان ماءا ، فيذهب مسرعا ليروي عطشه وإذا به يجده سرابا ، فكذلك الكفار طريقهم غير صحيح.

وغاية القرآن الكريم من هذه التشابيه التي هي جزء بسيط من مجموع ما ذكر في آيات الذكر الحكيم هي تجسيد الصور المعنوية بالصور المرئية والمحسوسة حتى تبلغ العقول؛فتفهم وبالتالي ترسيخ العقيدة الصحيحة لدى الناس، وتثبيتها في نفوسهم.

فكل تلك الأنواع للتشبيه يمكن اختصارها في نوعين أو قسمين وهما:<< التشبيه المفرد الذي يكون فيه الوصف المشترك محققا في شيء واحد كقولهم:الحكمة شجرة تثبت في القلب وتثمر في اللسان،فالحكمة مشبهة بالشجرة في أنّ لها جذورا ضاربة في النفس فتخصب معدنها،وأنّ لها آثارا حلوة في اللسان والشمائل وضروب السلوك كالثمار العذبة النابتة في منبت طيب،وهذا المعنى موجود في الشجرة من غير أن تكون محتاجة إلى شيء آخر>>[104] ، ويقول الشاعر:

كأنّها روضة منوّرة تجمع طيبا ومنظرا حسنا[105]

فالطيب والعبق في الروضة يجاوران المنظر الجميل لتنوع الألوان وغرابة بعضها في هذه الحديقة الزاهية، وثاني نوع من التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه المركب :<< حيث يكون المشبه أو المشبه به أو إحداهما غير مفرد ، ومثاله قول الشاعر:

وكأنّ أجرام النّجوم لوامعا درر نثرت على بساط أزرق[106]

وخلاصة القول أنّ التشبيه هو ضرب من الإبداع والتصوير لا تتأتى الإجادة فيه إلا لمن توافرت لديه أدواته وبراعة تامة في تشكيل صور مليئة بالحركة والحيوية،مما يمنحها جمالا وتأثيرا بالغا.

الاستعارة: تعتبر الاستعارة فنا من فنون التعبير، ومحسنا كلاميا ينمق به اللفظ ويزيد المعنى وضوحا وتبيانا <<فهي حاملة للفكر>>[107] ،حالها كحال التشبيه؛فهما مظهران لنفس الأدلة ألا وهي الصورة؛ لذلك عند بعض أهل البلاغة لا يمكن أن نفصل بين التشبيهات عن دراسة الاستعارات.

وقد تعددت تعريفاتها عند المفكرين منهم البلاغيين والنقاد لها وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على سعة هذا المفهوم،منها من قال بأنها << هي ذلك اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي>>[108] و "الجاحظ" هو من الأوائل الذين التفتوا إليها ، فعرّفها وحدد مفهومها ؛ فهي عنده :<< تسمية الشيء باسم غيره إذا أقام مقامه>>[109].

وقد حددها "عبد القاهر الجرجاني" بقوله :<< اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنّه اختص به حين وضع ،ثمّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم>>(110).

ومن خلال هذا الكلام للجرجاني يستطاع القول بأنّ الاستعارة هي أن تستعير للمعنى المراد التبليغ عنه لفظا غير لفظه وذلك بغرض المبالغة في التشبيه حتى يحدث امتزاجا بين اللفظ المستعمل والمعنى المراد تبليغه ، فهي إذن تعتمد اعتمادا كليا على التشبيه وهذا ما أكده لنا "عبد القاهر الجرجاني " في موضع آخر،حيث قال :<< اعلم أنّ الاستعارة تعتمد التشبيه أبدا >>(111) ؛ فهو يعوّل عليها :<< في التوسع والتصرف وتزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر>>(112).

ولكنها تمتاز عن التشبيه كضرب بلاغي في أنّ:<< وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أكثر وضوحا،فقولك:(إنّ الإرهاب أعمى) وأنت تريد بالإرهاب الصورة المتوحشة،ما يخص المشبه به،وهو العمي>>(113).

وهناك من يرى أنّ الاستعارة هي مبالغة في التشبيه،وهذا ما يظهر لنا من خلال كلام "الفخر الرازي" الذي قال:<< أن الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه >>(114) ، ويقول:<< هي جعلتك الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه >>(i)(115)،وإذا كانت الاستعارة هي :<< تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه فهي إذن من المجاز اللغوي >>(116).

إذن بالرغم من وجود تداخل بين التشبيه والاستعارة إلا أنّ هذه الأخيرة تختلف عنه اختلافا عميقا، لأنّها- الاستعارة- صورة مستقلة صادرة عن حركة فكرية مخالفة لحركة التشبيه.

وهذا ما وضحه"ر.والتز" حين قال :<< إنّ الاستعارة تبدو قاب قوسين من التشبيه ولكن الفرق بينهما في الحقيقة عميق ، وليست الاستعارة تشبيها ملخصا موجزا، ولكنها صادرة عن حركة فكرية مخالفة له كل الخلاف ، فعملية الفكر التي تتطلبها الاستعارة بل تفرضها فرضا، تتسّم بمزيد من الشدة والسّرعة >>(117).

أما النقاد اليونان؛ فقد اعتبروا :<< أنّ امتلاك ناصية الاستعارة كان ولا يزال من أعظم الأشياء ؛ لأنها الشيء الوحيد الذي لا يلقن وهي أيضا سمة العبقرية الأصيلة>>(118).

فإذن الاستعارة ذات أهمية كبيرة تساعد في إيصال المعنى،وهي تعنى بنقل دلالة الألفاظ إلى غير ما وضعت له في الأصل عن طريق تجريد المحسوسات، وتشخيص المجردات في كائنات حية تحسّ وتتحرك،وهي كلها توضح وتفصح عن المعنى المنشود وتصل إلى أعماق السّامع وتؤثر فيه ، والغاية من الاستعارة،هي المبالغة في التشبيه، كقولهم :<< إذا أصبحت بيد الشمال زمانها>>(119).

فقد أثبت الشاعر اليد للشمال،والغرض من ذلك المبالغة في تشبيهه بالقادر فأصل الاستعارة هو تشبيه أحد طرفيه، إضافة إلى وجه شبهه وآدته والمشبه هو المستعار له أما المشبه به مستعار منه كقول الله تعالى﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النّور ﴾(120).

ففي هذا المثال<< المستعار له هو الضلال والهدى والمستعار منه هو معنى الظلام والنور ، ولفظ الظلمات والنور يسمى مستعارا >>(121).

غرضها:<< إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إلية بالقليل من اللفظ،أو تحسن المعرض الذي يبرز فيه >>(122).

وتلخص تعريفات البلاغيين جميعا في قول "د عتيق" الذي أقرّ بأن الاستعارة هي:<< ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي >>(123).

وقد صنف أهل البلاغة صنفين من الاستعارة،استعارة مكنية وهي:<< التي لا يصرح فيها بلفظ المشبه به بل يطوى ويرمز له بلازم من لوازمه ويسند هذا اللازم إلى المشبه >>(124).

والأمثلة الدالة على هذا النوع كثيرة(125) ،منها ما قاله الحجاج في إحدى خطبه : إنّي لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنّي لصاحبها. فإنّ الذي يفهم منه أن يشبه الرؤوس بالثمرات فاصل الكلام إني لأرى رؤوسا كالثمرات قد أينعت ،ثم حذف المشبه به فصار أني لأرى رؤوسا قد أينعت ،ورمز للمشبه به المحذوف بشيء من لوازمه وهو أينعت،ونوع ثاني يتمثل في الاستعارة التّصريحية :<< وهي التي يصرح فيها بلفظ المشبه به المستعار كقولنا:رأيت أسدا يخطب الناس،فالمعنى المراد وهو الرجل الشجاع>>(126).

فقد استعير اسم الأسد للرجل الشجاع الذي لا يخاف من الأهوال ويركب الصعب ومن ثم حصلت الاستفادة منه وهي:<< المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه>>(127) ، والاستعارة كغيرها من الصور البلاغية اعتمد أهل البلاغة في تحليلها، وشرحها، وتحديد مفاهيمها على الصور الاستعارية الموجودة في القرآن،لأنه بمثابة مصدر يستندون عليه؛ حيث ارتقت إلى أعلى مستوياتها من البيان، فعبرت عن المعاني بقليل من اللفظ ، وبذلك أضفت على الأسلوب جمالا أخاذا وعلى المعنى قوة.

ولنا في القرآن صور استعارية كثيرة وما تمّ اختياره وتوضيحه فبه تظهر معجزات القرآن لغويا وبلاغيا وللاستعارة مزايا كثيرة ، ومن بينها أنها تؤدي بألفاظ قليلة ما تؤديه عبارات طويلة ، وهذا ما لاحظناه في تلك السور ما نجده ماثلا في القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى :{ ربّ إني وهن العظم من ي واشتعل الرأس شيبا }[128] ؛ فكلمة اشتعل الرأس هنا هي استعارة ؛ لأنّ الاشتعال خاص بالنّار، ولما كان الشيب يغزو الرأس فيظهر بصورة قليلة إلى أن يمتلأ الرأس شيبا هو في ذلك كالنار التي تتصاعد وتيرتها حتى تعلوا ، فتتطاير في السماء، فالعلاقة واضحة بين ضوء النار في الليل وبياض الشعر الأسود الذي يلمع من شدة بياضه.

وكذا نجد قولا آخر في سورة التكوير :{ **والصبح إذا تنفس** }[129] فالتنفس هنا مستعار؛ لأنه خاص بالكائن الحي سواء كان إنسانا أو حيوانا أو نباتا، فكأن الصبح يتنفس كل يوم بطلوع الشمس بعد سبات عميق في الليل.

المجـــــــــاز :

يعد المجاز من المقتضيات الضرورية في البلاغة،<< فهو في الأصل مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه نقل إلى الكلمة الجائزة ؛أي المتعدية مكانها الأصلي أو الكلمة المجوز بها على معنى أنهم جازوا بها وعدوها مكانها الأصلي>>[130].

يعتبر المجاز أسلوبا من أساليب البيان التي تعرض إليها أهل البلاغة، فحاولوا شرحه وتبيينه وتحديد حدوده،من ذلك ما أقرّ به"الجرجاني" يعني هو كل<< كلمة أريد بها غير ما وقعت له من وضع واضع لملاحظة بين الثاني والأول>>[131].

فالجرجاني هو الذي وضع المجاز في شكله المنضب،وقد عدّه<< كنزا من كنوز البلاغة ومادة الشاعر الملفق والكاتب البليغ في الإبداع ،والإحسان ،والاتساع ،في طريق البيان >>[132].

فالجرجاني– إذن– هو من النقاد الأوائل الذين عرفوا قيمة المجاز، ودوره في الإبداع والاتساع.

وعرفه "الجاحظ "بقوله:<< هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له،لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الحقيقي،وبناء على ذلك يقول الجاحظ ": إذا قالوا أكله أسد ،فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف،وإذا قالوا أكله الأسود،فإنّما يعنون النهش و اللذغ و العظ فقط وهو المجاز >>[133]، كما فرق العلامة "ابن جني" بينه ؛أي– المجاز– وبين الحقيقة؛حيث قال:<< الحقيقة ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة،والمجاز ما كان بضد ذلك >>[134]،انطلاقا من قول "ابن الجني" نرى أنّ المجاز هو تلك الألفاظ الموضوعة في غير معناها ؛فانطلاقا من أقوال هؤلاء اللغويون القدماء يتضح من أنهم أشاروا إلى أنّ المجاز هو ضرب من التوسع في الكلام وهو أبلغ من الحقيقة والتصريح ،لأنّ<<الانتقال فيه يكون من الملزوم اللازم،فهو كدعوى الشيء ببيّنة وأنّ الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنها نوع من المجاز>>[135].

وكما اشتهر عند أهل البلاغة وجدناه قد شاع عند أهل الدين و الأئمة الذين عرفوه وتمرسوا عليه ،فقالوا عنه مؤكدين حقيقة وجوده :<< ولو كان المجاز كذبا،وكل فعل ينسب إلى الحيوان باطلا ، كان أكثر كلامنا سدا،لأنّا نقول: بنت البقل ، وطالت الشجرة ،وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص الشعر وقد استشهدوا بأمثال من القرآن الكريم، حيث وجد في كثير من الآيات القرآنية[136]،ومن الأمثلة الدالة على وجوده في القرآن ، قوله تعالى:{ يوم تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون } نجد المجاز في نفس السورة في قوله تعالى :{ الزانية والزاني

فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين}وقد أخذ نصيبه كغيره من الصور بالشرح والتفسير والتحليل لبعض من الصور القرآنية التي تحمل مثل هذا النوع من الصور البلاغية.

إذن ما لوحظ أنّ المجاز قد تحوّل إلى قضية فلسفية بين الأئمة وأهل اللغة أساسها الحقيقة المجردة ،والتجوز لن يغير من الحقيقة،وإنما يساعد في الكشف عنها والظهور بمظهر غير مصرّح به.

وقد أقر العرب فوائد عدة من استعمال المجاز يجنيها صاحب الفكرة والمتلقي فذكروا أنّ :<< استعمال اللفظ المجازي دون الحقيقة قد تكون لاختصاصه بالخفة على اللسان أو لمساعدة في وزن الكلام نظما ونثرا والمطابقة والمجانسة والسّجع وقصد التعظيم والعدول عن الحقيقي للتحقير إلى غير ذلك من المقاصد المطلوبة في الكلام >>(137).

وقد قسّم البلاغيون المجاز إلى ثلاثة أنواع :<< مجاز لغوي وهو الاستعارة وهو ما ذكرناه سابقا يقوم على التشبيه،ومجاز مرسل لا يقوم على التشبيه،ومجاز عقلي يقوم على إسناد الشيء إلى ما ليس له>>(138).

ويرتبط المجاز ببلاغة الشعر،وفصاحته،وبيانه،واستعمالاته،وضروبه،بما في ذلك التصوير في مجال الشعر الذي ينهل من جمالية المجاز وطرق القول لتعطي للمتكلم طواعية في التعبير وتوصل إلى المخاطب المعنى المراد، فللعرب مجازات في الكلام،كالاستعارة.

– الكنايـــة:

تعتبر الكناية كغيرها من الصور التابعة لعلم البيان؛فهي أسلوب من أساليبه التي لا يقوى الوصول إليها ولا استعمالها إلا كل بليغ عالم بخباياها متمرس عليها،<< وميزة الكناية أنها تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها والقضية في طيها وبرهانها>>(139) ،فهي من العناصر البلاغية التي يستعملها الشعراء للتعبير عن المشاعر والأفكار وتقديمها في شكل فني لائق يعجب السامعين،فهي في اللغة أن نتكلم بالشيء وتريد غيره، يقال: << كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به، فبابه: كنى يكنى كرمى يرمى >>(140).

وهي:<< نتاج مشاعر خاصة اتجاه الأشياء ، والشاعر قد يضع كناياته أو رموزه اللغوية حتى توسع الدائرة الوجدانية لدى المتلقي الذي يستطيع استشفافها من خلال السياق الفني،وقد تتداخل الصور الكنائية في بناء تجسيدي لتفجر دلالات رامزة يكون في دلالاتها المتآزرة مكونة وشائج متداخلة معبرة عن موقف متكامل للمشاعر>>(141).

فهذه الصور الكنائية التي يصنعها الشاعر ويلقي بها لدى المتلقي هي مجموعة صور متداخلة فيما بينها لها دلالات تفهم من سياق الكلام وهي في مجموعها تعبر عن موقف متكامل للمشاعر.

وبالرغم من أنّ المفكرين حددوا مفهومها ، حيث بات يعني مصطلح الكناية بأنّه :<< كل لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة تجاوز إرادة المعنى الأصلي >>(142).

إلا أن من العرب قديما من أخلط بين الكناية والاستعارة،فاعتبر الكناية جزءا من الاستعارة للتشابه الحاصل بينهما،إلا أنّ الاستعارة أعم والكناية أخص فكل كناية استعارة ،وليس كل استعارة كناية(143)،لذلك سارع "عبد القاهر الجرجاني" إلى توضيحها وتبيينها، فوضع حدا لها

بقوله:<< الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه>>(144)،

وعنه أخذ البلاغيون شواهده المتبلورة ؛حيث قال :<< أولا ترى أنّك إذا قلت :هو كثير رماد القدر، أو قلتَ: طويل النّجاد، أو قلتَ في المرأة،نئوم الضحى فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ،ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى_على سبيل الاستدلال_ معنى ثانيا هو غرضك

كمعرفتك من كثير رماد القدر أنّه مضياف ،ومن طويل النّجاد أنّه طويل القامة ومن نئوم الضحى في المرأة،أنّها مترفة مخدومة لها ما يكفيها أمرها>>(145).

وللكناية أقسام منها ما يكون فيها المكنى عنه عبارة عن صفة ومنها ما يكون فيها المكنى عنه موصوفا ، كما يكون المكنى عنه فيها نسبة (146)فالكناية عن الموصوف لا تكون إلا إذا ذكر في الكلام صفة أو عدة صفات لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ومن الأمثلة الدالة عليه نجد قوله وتعالى :"أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين "سورة الزخرف حيث كنى عن المرأة بصفتين تختصان بها اختصاصا بينا وهما التنشئة في الحلية وعدم الإبانة في الخصام .أما بخصوص الكناية عن صفة فيكون بذكر صفة أو عدة صفات بينها وبين صفة أخرى تلازم وارتباط، بحيث ينتقل الذهن بإدراك الصفة أو الصفات المذكورة إلى الصفة المكنى عنها ومثال ذلك قولك:فلان طاهر الثوب ، ونقي الذيل ، فهي كناية عن العفاف والطهر، بينما الكناية عن النسبة وذلك بأن يريد المتكلم إثبات صفة لموصوف معين أو نفيها عنه، فيترك إثبات هذه

الصفة لموصوفها ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة به كقولهم: مثلك لا يبخل، فهي كناية عن نفي البخل عنه وتأكيد هذا النفي بنفيه عن نظيره المشارك له في أخص صفاته .

وتتضح معالم الكناية أكثر إذا أخذت من كلام العرب ، الذي يعد مصدرا أساسيا، ومادة أولية يستقي منها الأدباء والنقاد ما يحتاجوه من شعر ونثر، حتى يتسنى لهم فهمه.

والأمثلة كثيرة[147]، ومن الأمثلة على الكناية، قول العرب: "فلانة بعيدة مهوى القرط "، ومهوى القرط هي تلك المسافة من شحمة الأذن إلى الكتف، وإذا كانت هذه المسافة بعيدة لزم أن يكون العنق طويلا ، فكأنّ العربي بدل أن يقول :إنّ هذه المرأة طويلة الجيد ، فجاء بتعبير جديد يفيد اتصافها بهذه الصفة أما بالنسبة لأقوال الشعراء التي نلتمس منها الكناية نجد قول الشاعر يكني عن الكرم بإذكاء النار :

يذكون نار القرى في كل شاهقة يلقى بها المندل الهندي محطوما

إضافة إلى أنواع أخرى لها منها :<< التلويح، و الإشارة والرمز، والتعريض، والتلطيف، فهي تقوم على تنوع وتعدد الوساط بين حدّي الكناية >>[148].

فكل هذه الأنواع لها دلالة واحدة، وهي تحقيق البلاغة من الكلام ، وهذا ما أقره "الجرجاني" بقوله :<< لقد أجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح >>[149].

ومنه يستخلص القول،بأنّ الكناية:<<هي فن من الفنون الجميلة التي تمس حياة النّاس وأذواقهم وتطورهم الثقافي والاجتماعي،وهي تحتاج إلى حس لغوي مرهف،ذكي يختار المعنى ثم يخفيه

مشيرا إليه بأحد المعاني المنبثقة منه، المترتبة عليه،اللازمة له لزوما منطقيا،أو عرفيا،أو ابتكاريا،من صنع الفنان نفسه >>[150].